العرب
الجمعة 2019/07/12
السنة 42 العدد 11405

«رسائل الحرية» تفتتح الدورة الـ55 لمهرجان الحمامات الدولي

مسرحية تعود إلى تاريخ أفريقية المخفي وتدعو الناس إلى الحرية

إن تناول التاريخ في أي عمل فني أمر بالغ الصعوبة، وفي تفاصيل التناول تكمن اللعبة التي تشبه المشي على حبل فوق هاوية الكذب يلزم الفنان فيه عصا توازن من جزئين متناقضين الحقيقي والمتخيل. ولكن أحيانا تسهل اللعبة خاصة على الأعمال المسرحية المستقاة من نصوص مكتوبة سلفا كأدب مسرحي، فيكون العمل خطيا نمطيا، ويبقى أنه ليس هناك تناول مسرحي واحد وليس هناك مسرح واحد، ولكن الأكيد رغم هذا التعدد الصحي، فإنه لا فن دون قيم ولا قيم دون وعي وفكر.

تاريخ معروف ومجهول في آن

محمد ناصر المولهي
كاتب تونسي

افتتحت مساء الأربعاء 10 يوليو الجاري فعاليات الدورة الـ55 لمهرجان الحمامات الدولي بمدينة الحمامات التونسية، بعرض مسرحي كما جرت عادة المهرجان الفني والثقافي كل عام، حيث أن الحضور المسرحي البارز جنبا إلى جنب مع الحفلات الموسيقية والاستعراضية هو ما يميز هذا المهرجان العريق.

> كان خيار المخرج أن يذهب إلى التراث والتاريخ ويحفر هناك لكن خطاب العمل ككل كان تعليميا وثوقيا

هذه السنة قدم المهرجان عرضا مسرحيا من إنتاجه بعنوان "رسائل الحرية"؛ نص للكاتب التونسي عزالدين المدني وسينوغرافيا وإخراج حافظ خليفة.

تاريخ وإسقاطات

تتناول المسرحية فترة تاريخية حرجة من تاريخ إفريقية (تونس) دارت خلالها رحى حرب دينية، أذكى جذوتها دعاة من الشيعة وتحديدا من الإسماعيليين، جيشوا قبائل بربرية مثل كتامة وقاموا بمحاربة الدولة الأغلبية التي همشت البرابرة كغيرها من الدول التي قامت باسم الإسلام في شمال أفريقيا، وكان نتيجة هذه الحرب التي خاضها البرابرة مصدقين لنبوءة ظهور المهدي المنتظر، أن قامت الدولة الفاطمية، وهي أول دولة خلافة تتخذ من المذهب الشيعي منهاجا لها، ولكن الأمور عادت إلى ما كانت عليه وتحول حلم الحرية إلى كابوس.

المسرحية المكتوبة بلغة عربية مناسبة لتلك الفترة، بطلها أبوعبدالله الصنعاني، الداعية الشيعي الذي صادق أهل كتامة واتخذوه إماما ومرشدا لهم، وهو يحدثهم بقدوم المهدي المنتظر، ويغري عقولهم وقلوبهم بالتحرر من ظلم الأغالبة، ومن تهميشهم وإنكارهم، انقادوا معه إلى معارك أدت إلى تأسيس دولة جديدة، دولة استقدم إليها الصنعاني من كان يعتقد أنه من نسل الرسول وهو عُبيدالله المهدي، فما إن جاء المهدي ونصب نفسه خليفة حتى ذاع الظلم وقتل الفقهاء وشرّد الناس وغصب أموالهم، جرائم شتى عاشها القيروانيون خاصة، ليتبين في النهاية أن المهدي هذا ليس من نسل الرسول.

وبالعودة إلى التاريخ فإن الشكوك التي أثيرت حول أصول الفاطميين كثيرة، فمن المؤرخين من رأى أنهم لا يمتون بصلة لنسل الرسول ولا لفاطمة الزهراء، وأنهم من بادية الشام، وآخرون يرون أنهم فرس، وفي العمل المسرحي، اتفق الداعي الصنعاني وأخوه على أن عبيدالله المهدي مزيف، وهو ما أدى إلى مقتلهما، لتنتهي المسرحية على أمل قيام ثورة ضد الطغاة الجدد.

الإسقاط على الواقع اليوم يبرره مخرج العمل والقائمون عليه، بأنه في مدار التحرر الموؤود، وهذا ظاهر منذ العنوان "رسائل الحرية". وكأننا بالحدث التاريخي يتحول إلى رسالة جديدة اليوم تدعو إلى التحرر، وإلى أن من أتوا باسم الصلاح والحرية، ليسوا سوى طغاة جدد، هذا ما يبدو من العرض الذي ينتقد وصول الإسلاميين إلى تونس ما بعد الثورة التي قامت طلبا للحرية والكرامة، ولم يشارك فيها الإسلاميون، بل هم سطوا من بعد على جهد الشباب ودمائهم، وكلنا يذكر استقبال زعيم إخوان تونس راشد الغنوشي، بعد نجاح الثورة وفرار الرئيس كما فر في المسرحية الخليفة زيادة الله، وقد استقبل الغنوشي بأغنية "طلع البدر علينا" التي استقبل بها أهل المدينة الرسول محمد. إنه المهدي الذي انتظره ناس يائسون لإصلاح أمورهم، فما كان إلا وعادوا مع ما رأوه من ظلم وحيف إلى التباكي على ما فات، فما فات كان أفضل مما هم عليه الآن. وهذا ما نجده تماما في العمل المسرحي.

إنها سيرة ثورة وئدت، وبات الثوار يتمنون أن يعود من ثاروا عليه.

الإسقاط يبدو واضحا، كما تبدو السينوغرافيا لعبة جهد، مثلا في إقحام القطار أو البنادق في زمن كذاك، أو سعف النخيل بدل الأسلحة، لعب جيد على الرموز، كما لا ننسى الأداء المبهر للمثل التونسي بشير الغرياني الذي أدى باقتدار دور الداعية الإسماعيلي عبدالله الصنعاني. وأجواء العمل شدت الجمهور الذي أراد متابعة الخرافة. لكن هل كانت مقاربة ناجعة حقا للثورة؟

المسرحية كلاسيكية وخطيّة، لا لعب فيها على ملامسة مناطق إشكالية. إنها رسائل إيهامية، تزيد من حرارتها الموسيقى المتبعة والتي خالطت الحوارات أو الخطابات أحيانا، وأيضا كان الاعتماد على الفنان التونسي لطفي بوشناق الذي أدى مقاطع خصيصا للعمل، وكانت مميزة فعلا.

خطاب كلاسيكي

يبقى أن نتساءل عن الخطاب الذي قلنا إنه إيهام، يصل إلى درجة التماهي بين المتلقي والعرض، ليطلق له رسائل تعليمية مباشرة تقول "أنتم المهدي". إنها الخلاصة.

عدنا مع هذا العمل إلى مسرح تعليمي لا يتجاوز تأثيره لحظة التلقي، لا فكرة تحفر في عقول الناس، ولا جمالية جديدة، ولا خطاب شجاع وجريء يكسر حواجز التعبير والتفكير والرؤية عند الجمهور.

لقد ارتمى الفن المعاصر في مجالات شتى في مناطق مجهولة بشجاعة أفقدته أحيانا كثيرة الجمهور، لكن من يتبع من؛ الفن أم الجمهور؟

من خلال هذا العرض نتبين الحلول السهلة التي اتخذها بعض المسرحيين التونسيين لإشكاليات عديدة شكلية وجوهرية، فعاد الكثير منهم إلى نصوص واضحة بخرافة واضحة وبنية واضحة، عادوا بوثوقية شبه عمياء، تعرض لجمهور حكاية واثقة ومحددة، جمهور لا ينبغي أن تتعبه بالتفكير بل يجب أن تخدّره بما تراه هي فحسب، فينساها وتنساه بعد العرض بعشر دقائق.

ربما كان خيار المخرج أن يذهب إلى التراث ويحفر هناك، ولكن العمل على التراث وعلى التاريخ فنيا خطير جدا، ولذا كان الاتجاه الأكثر تأثيرا هو ما يتناول التاريخ دون أن يركز على الأحداث الكبيرة، ففي التفاصيل مواطن عمل كثيرة يمكن من خلالها قلب المعادلة وكشف وجوه أخرى لا نعرفها عن التاريخ. ومن منا مثلا لا يتذكر لعبة ماركيز في "مئة عام من العزلة" وهو يتناول قصص مذابح مزارع الموز من زاويا مختلفة تماما حمّلها أبعادا تاريخية ودلالية كبرى من تاريخ كولومبيا.

اللافت أن هذا النمط المسرحي ما زال قادرا على استقطاب الجمهور من الشباب، وهذا على عكس ما يروج له سطحيو النظر بأن المسرح يكتب باللهجات المحلية فحسب، أو يتناول قضايا الآن وهنا فقط. ويبقى أن هذا هو العرض الأول للمسرحية التي نأمل أن يكون أثرها أثر رسائل الحب الأولى.

«الفوانيس» قصة تضيء القدس في ذكرى رحيل غسان كنفاني

القدس – في الذكرى السابعة والأربعين لرحيله يعود الصحافي والكاتب الفلسطيني غسان كنفاني ليطل من جديد في القدس بعرض مسرحي غنائي مأخوذ عن قصته "القنديل الصغير"، يعرض لأول مرة في المدينة.

وبدأ مركز يبوس الثقافي في القدس، الأربعاء، تقديم مسرحية "الفوانيس" التي تدور أحداثها حول وصية يتركها الملك لابنته الأميرة، مفادها أنها إذا أرادت أن تصبح ملكة فعليها أن تجعل الشمس تدخل إلى القصر.

وسعت البطلة جاهدة إلى إدخال النور إلى القصر لتحكم مملكة أهلها السعداء، وفي النهاية هم لم يحضروا الشمس إلى القصر لكن بتعاونهم أناروا عتمة القصر بنور الفوانيس الذي كان أكبر من نور الشمس.

العرض من إخراج فرناندو نوبي وإدوارد معلم وكتب له السيناريو وسيم الكردي ووضع الموسيقى سهيل خوري وصمم الديكور ماجد الزبيدي وكانت الأزياء من تصميم حمادة عطا الله.

ووصل العرض إلى القدس بعد 15 عاما من تقديمه في رام الله، حين قدمه وقتئذ المعهد الوطني للموسيقى.

قد كتب قصة "القنديل الصغير" للأطفال، وخصيصا لابنة أخيه لميس ورسم لوحاتها حبا للميس بمناسبة عيد ميلادها. وقد ماتت لميس مع الأديب الفلسطيني عند اغتياله في بيروت العام 1972 في عملية نفذها الموساد الإسرائيلي.

ويشير التعريف المطبوع بالمسرحية إلى أن "قصة القنديل الصغير هي أول عمل يكتبه كنفاني للأطفال".

ويستمر عرض المسرحية في مركز يبوس الثقافي للجمهور من 13 إلى 20 يوليو الجاري. وليلة العرض وقف 40 طفلا وفتى تتراوح أعمارهم بين 8 سنوات و18 سنة على خشبة مسرح مركز يبوس الثقافي القريب من أسوار البلدة القديمة في مدينة القدس يرافقهم 33 عازفا من أوركسترا المعهد الوطني للموسيقى.

وتنقل الفتية بين 28 لوحة فنية تنوعت فيها الألحان الموسيقية بين الشرقية والغربية والإضاءة الحديثة المتقنة.

وعمل الفنان محمد عاموس على رسم لوحة فنية كخلفية للمسرح يظهر فيها رسم للشمس والجبال لتعبر عما تدور حوله المسرحية.

وتولى الموسيقار الفرنسي أورليان بلو قيادة الأوركسترا التي كان من بين أعضائها أربعة أجانب إضافة إلى 28 فلسطينيا.

وقال الموسيقار سهيل خوري بعد عرض تجريبي حضره عدد من الصحافيين وأقارب المشاركين فيه "نعود لتقديم العمل مرة أخرى بعد 15 عاما مع أطفال جدد خضعوا لأكثر من سنة ونصف السنة من التدريب".

وأضاف خوري، وهو أيضا مدير المعهد الوطني للموسيقى الذي تعاون في إنتاج العمل، أن الجديد في الإنتاج الحالي هو أن الأوركسترا المرافقة للعمل فلسطينية وتقام على مسرح هو الأول من نوعه في المدينة المحتلة.

متابعا "نقدم هذا العمل اليوم في مكان مخصص لعرض المسرحيات الغنائية حيث هناك حجرة أسفل المسرح لتعزف فيها فرقة الأوركسترا".

وفي أوائل تسعينات القرن الماضي، أعاد الشاعر الفلسطيني وسيم الكردي كتابة السيناريو والأغاني بما يتناسب مع العمل المسرحي، قبل أن يؤلف سهيل خوري موسيقى العمل، وتنتج للمرة الأولى العام 2004.

أطفال يلاحقون الشمس

وأوضح خوري أن فكرة العمل "بدأت في 1994 وبدأ العمل عليها لمدة عشر سنوات بشكل متقطع قبل أن يقدم العرض الأول عام 2004، وبعد 15 عاما نعود لتقديم العمل مرة أخرى".

وتحدث عن صعوبة تلحين النص النثري الذي كان بمثابة تحد وقال "شاهدنا اليوم النتائج على الأرض وهذا العرض الرائع للأطفال على خشبة المسرح. يمكننا القول إننا نؤسس لمسرح غنائي. وسنعمل ليكون لدينا عرض سنوي على الأقل".

وقالت نور ناصرالدين (16 سنة) التي مثلت دور الأميرة في المسرحية "أنا مولعة بالغناء منذ صغري، ولكن هذه هي المرة الأولى التي أمثل فيها، وأنا سعيدة جدا بذلك، أحببت الموسيقى والأغاني".

وأضافت "تعلمنا من هذه المسرحية كيف أننا عندما نتوحد يمكننا أن نفعل أي شيء، وأصلا الأغنية تقول: لما الفوانيس بتتجمع أكثر من الشمس بتولع".

وقالت دنى عياد التي أدت دور الحكيمة في المسرحية "لقد قدمنا العمل كمجموعة، وكل واحد كان عارفا ماذا عليه أن يفعل. نحن سعداء لهذا العمل الذي قدمناه".

أما تالين ظاهر (8 سنوات) وأصغر المشاركين في المسرحية فقد قالت بعد انتهاء العرض "كنت متوترة ومتحمسة في الوقت نفسه، المسرحية علمتنا أهمية التعاون والمشاركة".

ووصف المخرج إدوارد معلم المسرحية بأنها تجربة مهمة للمشاركين فيها وقال بعد العرض "أنا متأكد أن هذا العمل سيتذكره الأطفال طول أعمارهم. ساعات من التدريب وتجارب الأداء وكثير منهم لأول مرة يقف على خشبة المسرح".

وأضاف "نحتاج إلى عمل بشكل مشترك بين مختلف المؤسسات الثقافية التي تعمل في مجال الموسيقى والغناء والرقص لنؤسس مسرحا غنائيا فلسطينيا".

> المسرحية تزرع قيم التعاون في الأطفال من خلال قصة غسان كنفاني وما تضمنته عن الوحدة والحرية والعمل الجماعي

وقد ارتدى الممثلون في المسرحية الملابس الملونة والمزركشة وسط ديكورات تاريخية نفذها ماجد الزبيدي. وقالت رانيا إلياس مديرة مركز يبوس الثقافي والمنتجة المنفذة للعمل "الفوانيس من أكبر وأضخم الإنتاجات الفنية المسرحية الغنائية في فلسطين التي هي أصلا نادرة".

وأضافت أن أهمية إعادة إنتاج "الفوانيس" تكمن في "زرع قيم الحرية والوحدة والعمل المشترك في عقل الجيل الجديد للوصول إلى الحرية المنتظرة".

ولفتت إلياس إلى أن هذا العمل يحمل رسالتين، الأولى أن نقدم مسرحا غنائيا بطريقة محترفة من حيث الإنتاج والإخراج والتمثيل والإضاءة والملابس. أما الثانية، فنريد من خلالها زرع القيم بالفتية المشاركين من خلال قصة غسان كنفاني وما تضمنته عن الوحدة والحرية والعمل الجماعي.